

# الخيال

يمتاز الإنسان عن سائر الكائنات بأنه سيّد الأبعاد، فبإدراكه يمتلك القدرة على اكتشاف العالم الواقعي الذي يحيط به. والإدراك ليس مجرد عملية إثارة للحواس الخمس، بل هو عبارة عن علاقة تربطنا بالأشياء، فتكشف لنا وجودها وتحدّد لنا خصائصها. وبذاكرته يمتلك القدرة على استعادة الماضي كماضي، فالذاكرة هي إذاً وظيفة نفسية تحفظ الماضي وتستردّه في حدود فترة زمنية محدّدة. وبخيله يتوجّه نحو المستقبل، ويتحرّر من الواقع ويعبر عن حاجته الملحة إلى الإستقلال. فهو يدعونا إلى إعادة خلق العالم كما نريد، من خلال إبداع صور جديدة تحمل رؤيتنا ومعاناتنا، وأحلامنا.

## I. بعض الأقوال

يقول برادين: "التخيل هو أن نخلق صوراً تكون بديلاً عن الأشياء المدركة هروباً من الواقع". ويقول جويبير: "أنه ملكة تنقل ما هو ذهني إلى الوضع المحسوس وتجسّده في الصور التي تلائمه". وقال لالاند: "هو قوّة تركّب الصور في لوحات او تتابعات مقلّدة لوقائع الطبيعة، إنّما لا تتمثّل شيئاً واقعاً ولا شيئاً موجوداً".

## مشكلة وجود الصور: (الإشكالية)

عندما يتخيّل الإنسان، فإنّه يستعيد صوراً. هذه الصور، حسية كانت أم ذهنية، هل هي موجودة فينا؟ أنستعيدها كاملة كما كانت، أم مختلفة بعض الشيء، أم جديدة كلياً؟

## II. النظرية التجريبية:

اعتبرت المدرسة التجريبية أنّ الصورة الذهنية هي إعادة تمثّل الفكر لما ادركه البصر. إنّها تكرار عقلي مخفف وأقلّ تميّزاً لإحساس، أو بالأحرى لإدراك حسيّ سابق. هكذا، فإنّ هيوم، الذي ميّز بين الإنطباعات والأفكار، اعتبر أنّ هذه الأخيرة هي صورّ ضعيفة للإنطباعات او للإدراكات الحسية. إنّها بقايا الإدراكات الحسية بعد غيابها؛ ووجودها في الذهن شبيه بوجود الصور الفوتوغرافية في الألبوم. لذلك كانت الصور مجرد رمز أو بديل عن أصل، بنظر التجريبيين، الذين يرون أن لا إمكانية للتصور ما لم يكن هناك إدراكات سابقة، فالذي يولد أعمى لا يتمكّن من تصور الأشياء

والألوان. ويرى التجريبيون أنّ العلاقة وثيقة بين التخيل الذي يعيد الإنتاج وبين التخيل الخلاق (الخيال المستعاد والمبدع). فإذا كان الأول تمثلاً لموضوع غائب، فالثاني ليس إلا إعادة ترتيب جديد غير مالوف للصور التي خزنها الإدراك الحسي في الذهن. فالرسام، على سبيل المثال، في تخيله لعروس البحر، لم يبدع هذه الصورة من مختلف جوانبها، وإنما هو أعاد بناء بعض المعطيات الإدراكية بطريقة مختلفة، أي أنه مزج ما بين صورتين هما في الأساس من موضوعات الإدراك الحسي؛ إنّ وجه المرأة وجسم السمكة هما معطيات حسية. يقول أناتول فرانس: "الشاعر أبدع حورية البحر لكن الطبيعة خلقت البحر والمرأة والغيوم."

### .III. نقد هذه النظرية:

ينطلق التجريبيون في تفسيرهم للتخيل من منظور خاطئ يرد التخيل والإدراك إلى طبيعة واحدة. ومن الصعب الدفاع عن هذا الرأي الذي تكذبه التجربة الشعورية الفطرية. فالتجربة التي يعيشها الفرد في أعماقه يتخللها شعور واضح بأن التخيل هو عملية مختلفة عن العملية الإدراكية، فالإنسان قادر في الحالات السوية على التمييز بين الصورة والإدراك بغض النظر عن شدتهما، فلا نخلط أبداً بين تصورنا لصوت إنفجار هائل وإدراكنا لصوت صرار. فإننا نميز بطريقة عفوية ما بين الإدراك والتصوّر، فلا يقع في ظننا أن يكون التصوّر القوي إدراكاً ولا الإدراك الضعيف تصوّراً لأنّ توجّه الوعي هو الذي يحدد حقيقة فعله.

### .IV. الفلسفة الحديثة: (النظرية الظاهرية)

رفض الفلاسفة الحديثون مفهوم الصور الذهنية (الموجودة في الفكر كما الصور الفوتوغرافية في الألبوم).

- آلان: يرى أن لا وجود لصور عقلية، يقول عن صديقه الذي ادّعى أنّه قادر على تخيل البنثيون Panthéon، أنّ معرفته ظهرت في مسلك جسده. ولنا في حياتنا اليومية أمثلة على ذلك، فإننا عندما ندلّ شخصاً على مكان ما، فإنّ صورة المكان تظهر من خلال حركة يدنا كما لو كنّا نسير فعلاً على الدرب الموصل إلى المكان. باختصار الصورة هي معرفة مرسومة بالجسد.

- هوسرل: والمدرسة الفينومينولوجية (الظاهرية) اعتبروا أنّ الوعي ليس سلبياً، فلا وجود لصور ذهنية داخلية، بل إنّ الوعي هو وعي لشيء ما. وهكذا فإنّ وعي يتجه لإدراك هذه الطاولة الحاضرة أمامي، كما يتّجه بشكل آخر لإدراكها وهي غائبة.

- سارتر: استند إلى كلّ من آلان وهوسرل، وبلورَ نظرية "الوعي المتخيّل". التخيّل هو التفكير بالشياء بوصفه غير موجودٍ أماناً، أي بوصفه عدماً. فالتخيّل هو إعدام الشيء. ومهما كانت الصورة بارزة في الوعي، فهي توجّه نحو موضوع غائب. ولكن، لا بدّ من وجود شبيهه للمتخيّل analogon نعبّر منه وبه إلى المتخيّل، ولا بدّ في ذلك من تجاوز وخرق الشبيه للوصول إلى الرمز المتخيّل. فالصورة الفوتوغرافية هي هذا الشبيه، الذي يعبره وعينا، لتتخيّل من ترمز اليهم هذه الصورة. فالعاشق عندما ينظر إلى صورة حبيبته لا يكتفي بالصورة، ولا حتى بجسدها العضوي المتخيّل، بل يتخيّل علاقة وعناقاً وحياةً مشتركة. ومن خلال علبة مرطبات فارغة يتقاذفها طفل برجله، يتخيّل هذا الطفل مباراةً كاملة في كرة القدم. تنتهي بانتصاره إذا وقعت العلبة في الحفرة، وهو يفرح لهذا الانتصار لأنه مائل بين علبة المرطبات المادّية وكرة القدم الغائبة؛ فليس المهم في المماثل معناه الحاضر، بل معناه الغائب. غير أنّ المعنى الغائب لا يتمّ إلّا إذا أعدمنا الصورة كجسم مادي، واخترقناها لنصل إلى الرمز المتخيّل.

## ٧. نقد لهذه النظرية:

لقد نجحت نظرية سارتر في تفسير قدرة الإنسان الواعي على التمييز بين الواقع والخيال، لكنّها فسّرت فقط الخيال المستعيد أي الخيال الذي يستعيد المواضيع المعروفة، وليس الخيال الخلاق أو المُبتكر، فلا نستطيع أن نعتبر أنّ الخيال الخلاق هو التفكير في موضوع على أنّه غائب بل يبدو أنّه يستحضر موضوعاً غائباً أو غير معروف في الواقع عبر عملٍ فنيٍّ جديد أو إكتشاف علمي غير متوقّع.

## ٧.١ أشكال الخيال

### 1- الأشكال الدونية للخيال (ذات القيمة السلبية)

**الخيال الشارد (غير المراقب):** يتمثّل في الحلم الليلي وأوهام المريض النفسي؛ ففي هذا الوضع، ليس للإنسان أي قدرة على توجيه خياله فهو، يخلط أولاً بين الخيال والواقع. ولا يستطيع ثانياً أن يفهم العلاقة بين مسلسل التصورات واللوحات التي يتخيّلها، فهي تتوالى بطريقة غير منطقيّة وغير واضحة وغير مفيدة للإنسان. بل تكون ذات خطورة عند المريض النفسي.

**الخيال عند الأولاد:** الولد أيضاً يخلط بين الواقع والخيال، فيهوى القصص الخياليّة التي تروي أحداث تحصل بين شخصيات وهميّة تكون لها معاني تعكس إهتماماته النفسية في هذه المرحلة من

العمر. فمن الطبيعي أن يكون خيال الولد متأثرًا بهذه المواضيع الأسطورية أو الخرافات لكن من الطبيعي أيضًا أن يتجاوزها مع تطوّر ونموّ العقلي.

**أحلام اليقظة:** إنّ أحلام اليقظة هي تخيلات يتوجّه إليها وعي الإنسان في حياته اليومية وهي تتميز عن أحلام الليل بأنّها نسبيًا إرادية، وتتسلسل في شكل متماسك نوعًا ما لكنّها بالمقابل تخفّف كثيرًا من وعي الإنسان لمحيطه المباشر فتؤدّي إلى تشتت ذهنه وغياب انتباهه فيفشل بالتكيف مع ظروفه الحاضرة وإذا ما استغرق الإنسان في هذه الأحلام، فقد يؤدّي ذلك إلى فشل في التكيف مع المحيط وإستبدال تدريجي للعالم الواقعي بالعالم الخيالي، وهذا ما يشكّل قيمة سلبية للخيال.

## 2- الأشكال العليا للخيال (ذات القيمة الإيجابية)

إنّ الأشكال العليا للخيال تعبّر عن نفسها أفضل تعبير في الإبتكار والخلق، في المجالات العلمية والفنيّة ويعتبرها باشلار نقبض للخيال الليلي ذي القيمة السلبية أو الدونيّة، فالخيال الخلاق يتكوّن بفعل عوامل متعدّدة منها عاطفية ومنها ثقافية إجتماعية ومنها عقلية: (شروط الإبداع)

**العوامل العاطفية:** وهي تلعب دورًا أكيدًا في المجال الفنّي وتساهم في إبداع الأعمال الفنيّة، كاللوحه والمعزوفات والقصائد... وكذلك تلعب دورًا في المجال العلمي: فالإنسان يندفع إلى البحث العلمي بفعل رغبته أو حاجته لتحقيق مشروع أو إكتشاف يحقّق أهدافه: إنّ حاجة الإنسان للطيران وحلمه به إنتهى إلى تحقيقه لهذا المشروع العلمي والتقني، والحاجة الملحة إلى معالجة الإلتهاب الناتجة عن جروح الحرب العالمية الأولى أدت إلى إكتشاف البنيسلين على يد فلمينغ.

**العوامل الثقافية الإجتماعية:** إنّ تحصيل ثقافة العصر، شرط اساسي لنمو الخيال الخلاق في المجال العلمي والفنّي، إذ يستحيل على الباحث أن يبتكر أو يكتشف شيئًا لا علاقة له بثقافة عصره، فالأدوات الكهربائية تمّ اختراعها بعد اختراع الكهرباء كطاقة وليس قبلها. وكذلك في الفنّ، يبدأ الفنّان بتقليد الفنّانين السابقين، وبعد ذلك، يبتكر أسلوبه الخاص وأعماله الخاصّة.

**العوامل العقلية:** وتتمثّل في القدرة العقلية والإعداد العلمي أو الفنّي الذي يهيّء الإنسان للبحث ولالإبتكار فالخيال الخلاق مشروط ليس فقط بالإعداد النظري إنّما أيضًا بالبحث المتواصل الذي يتكلّل أخيرًا بالإكتشاف، كان إديسون يقول: "إنّ الإختراع يتطلّب عشرة بالمئة من الإلهام و تسعين بالمئة من التعب في البحث".

**آلية الإبتكار:** إنّ الإختراع هو تفكيك لمفاهيم قديمة وبناء لمفاهيم جديدة. في مرحلة أولى يقوم عقل الباحث برفض وتفكيك المفاهيم القائمة من خلال ملاحظته للأخطاء الموجودة فيها وتناقضها مع الواقع العلمي وفي مرحلة لاحقة يبتكر تفسيرًا جديدًا بديلًا للتفسير القديم مرتكزًا على

الخيال الخلاق أو الإلهام من جهة، وعلى إعداد المنهج من جهة ثانية أي أنّ الحلّ الجديد المطروح ينتج عن التفاعل بين الإلهام والمنهجية والتجربة. الحقيقة العلمية ليست نهائية بل نسبية والفكر النقدي هو الفكر الذي يتجاوز ما هو قائم ليمهّد لإبتكار جديد.

## VII. الخيال والإلهام:

يبقى السؤال حول طبيعة الإلهام والخيال المبدع وحول دور العقل الباطن في هذا الإبداع. يتحدّث البعض عن إبداعهم في الصباح الباكر الحلّ لمسألة كانت قد شغلتهم في الأيام الماضية دون نتيجة. علماء النفس يفسّرون هذا الأمر بعمل العقل الباطن، والفلاسفة التعقّلون يرجعونها إلى صفاء الوعي في الصباح. هذه الإكتشافات تسمى الوعي أو الإلهام مثلاً ما حدث مع أرخميدس ونيوتن. ولكن في الحقيقة أنّ أرخميدس ونيوتن ما كانا ليكتشفا الحلّ لو لم يبحنا طويلاً قبل إكتشافه، فالخيال المبدع هو تنظيم عقلي يحتاج إلى الذكاء، إنّه ميزة العبقري على إكتشاف علاقات جديدة بين العناصر الكونية، لا يكتشفها الإنسان العادي.

## خاتمة

إنّ الخيال ليس وظيفة مستقلة جامدة ومنفصلة عن الشخصية التي يرتبط بها. الخيال هو وظيفة ديناميّة فاعلة تعبّر عن وعي الإنسان وعن بنيته النفسيّة بشكلٍ عام. الخيال هو إنفتاح وتجدد، فهو الذي يميز الإنسان عن غيره من الكائنات. للخيال دور كبير في عملية تقدّم إنساني، و الفنان لا يكتفي بتطوير الطبيعة كما هي بل يريد خلقها عن جديد. في غياب التطوّر العقلي والنموّ النفسي يبقى الخيال مؤدياً لدور سلبي أو دوني فيقتصر على وظائفه الطبيعيّة في الأحلام الليليّة أو في الأوهام المرافقة للإضطرابات النفسية. أما إذا توصل الإنسان إلى تحقيق نمو عقلي ونضوج عاطفي وانفتاح ثقافي، عندها يقوم الخيال بأداء وظائفه الخلاقة.